الندوة الأولى

هوية الأمة العربية الإسلامية في مواجهة
التحدي العلمي والتقنيات الحديثة

أدارها

الأستاذ الدكتور محمد أحمد حمدان، عضو المجمع

وشارك فيها:

الأستاذ الدكتور عبدالمجيد نصير، عضو المجمع

الأستاذ الدكتور همام غصيب، عضو المجمع

السبت 23 شوال 1412 هـ 25 نيسان 1992 م

كلمة

الأستاذ الدكتور محمد أحمد حمدان

عضو المجمع

كلمة

الأستاذ الدكتور محمد أحمد حمدان

عضو المجمع

أيها الحفل الكريم.. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

فأرحّب بكم أجمل الترحيب وأحييكم أطيب تحية، وأسأل الله العلي القدير أن يوفقنا ويهدينا إلى العمل الجاد النافع المنتج لما فيه خير الأمة وصلاحها.

إن موضوع ندوتنا لهذا اليوم موضوع حيوي مهم لما له من أثر كبير على مستقبل الأجيال في هذه الأمة، ولعلي قبل أن أقدم إليكم الزميلين الفاضلين المتحدثين في هذه الندوة، أقدم للموضوع ببعض الملاحظات الموجزة:

١ - لقد اعتدنا عند بحث هذا الموضوع التركيز على عرض جوانب النقص وأسباب تخلف الأمة العربية الإسلامية عن مواكبة التطور العلمي والتقني في الدول المتقدمة، وكثيراً ما يتحول النقاش إلى تشخيص الداء في عدم توافر المناخ العلمي ، والتقني الملائم للإبداع والإنجاز بما في ذلك عدم كفاية الدعم المادي لنشاطات البحث العلمي والتطوير التقني.

٢ - وخلافاً لهذا المنحنى، فإنني أرى أنه قد آن الأوان لأن ننطلق من ظروفنا وإمكاناتنا الحالية للوصول إلى مقترحات عملية من أجل الإسهام الفعال في التقدم العلمي، والتقني والاستفادة منه في تيسير أمورنا المعيشية، مع المحافظة على هوية الأمة العربية الإسلامية، بل دعم الاعتزاز والافتخار بمنجزات علمائها وباحثيها. وفي اعتقادي أن هذا المنحنى يجنبنا ما اعتدنا عليه من جلد الذات ، ويترك المجال مفتوحاً للتفاؤل بالمستقبل العلمي والتقني لهذه الأمة.

٣ - وإن التقدم الهائل الذي يشهده عالمنا في حقل المعلوماتية والاتصالات يستدعي أن تعمل الأمة على الاستفادة من هذا التقدم بتوطين العلوم والتقنيات الحديثة في البلدان العربية الإسلامية، مع مراعاة تراثنا وقيمنا التربوية والأخلاقية والاجتماعية والصحية والنفسية

والبيئة. ولاشك أنه يقع على عاتق المؤسسات التربوية والإعلامية أن تلعب دوراً أساسياً ومهماً في سبيل تحقيق ذلك. وغني عن القول، فإنه على كل بلد من البلدان العربية والإسلامية أن يعمل على نقل العلوم والتقنيات الحديثة إلى لغته الأم، لأن ذلك هو الأسلوب المنطقي الفعال الذي يؤدي إلى تيسير الفهم والاستيعاب الكامل، وبالتالي إلى إمكانية التميز والإبداع. كما أنه لمن الضروري أن يتم التنسيق والتعاون بين الدول العربية والإسلامية في جميع المجالات العلمية والتقنية.

4-وإن المؤسسات المعنية بالعلوم والتقنيات الحديثة عديدة في الدول العربية والإسلامية، إلا أن التنسيق والتعاون بين هذه المؤسسات ضعيف جداً إن لم يكن معدوماً. وأنه لأمر حيوي تنسيق جهود هذه المؤسسات لتبادل الإفادة من هذه الجهود ولتجنب الازدواجية والتكرار الذي يستنفد الجهود البشرية والمادية دون جدوى.

5-ويذكر على سبيل المثال لا الحصر، التعاون في إنشاء مراكز بحثية وتقنية متخصصة تهدف إلى تركيز جهود العلماء العرب والمسلمين في حقل محدد والسعي إلى التميز والإبداع في هذا الحقل. هذا بالإضافة إلى التعاون في مجال تبادل المعلومات العلمية، وتبادل الزيارات بين العلماء والتقنيين، وكذلك التعاون في نشر المجلات العلمية المتخصصة. كما يلزم التعاون في اقتناء واستعمال الأجهزة والتجهيزات والمواد المكتبية التي أصبحت تكلف مبالغ طائلة. كما أنه من الضروري أن يتم التنسيق والتعاون في إنشاء المشاريع الصناعية التقنية عالية الكلفة التي لا يمكن أن تكون مجدية اقتصادياً إلا إذا توافرت لها أسواق عربية وإسلامية واسعة.

6- وفي مجال إبراز دور الأمة العربية الإسلامية في التقدم العلمي والتقني، فإنه لا بد من تأكيد دور العلماء العرب والمسلمين الذين استقطبتهم الدول المتقدمة للعمل فيها.. وفي الواقع، يوجد في الدول الغربية علماء عرب ومسلمون أفذاذ يسهمون بشكل فعال في الإنجازات العلمية والتقنية لتلك الدول، وقد حصل بعضهم على أرفع مراتب التقدير والتكريم. ومع أن كثيراً من هؤلاء العلماء

يحملجنسية تلك الدول، إلا أنه لا يمكن إنكار فضل البلدان العربيةوالإسلامية التي أنبتتهم وتعهدت تربيتهم وتعليمهم في المراحلالأولية من حياتهم العلمية.

7- وفي سبيل تثبيت دور العلماء العرب والمسلمين الذين يعملون فيالغرب وتأكيده، لا بد من مد الجسور المتينة بين هؤلاء العلماءوالبلدان العربية والإسلامية ، التي يقع على عاتقها تسهيل عودةهؤلاء العلماء لمدة قصيرة أو طويلة للإسهام الفعال في توطين العلوموالتقنيات الحديثة، بل تدريب العلماء الشبان في الوطن على التطبيقالعلمي الفعال لأساليب هذه التقنيات ووسائطها. وإنه لمن الممكنمن خلال التخطيط السليم أن توضع خطة عمل وبرنامج زمني يحدددور العلماء المغتربين في الإسهام في برامج التنمية الوطنية.

8- وأعتقد أنه لمن الضروري أن نعمل على إبراز دور العلماء العربوالمسلمين بالشكل المناسب، وذلك بأن تتولى إحدى المؤسساتالعلمية العربية الإسلامية، حصر إنجازات العلماء العرب والمسلمينومتابعتها ، بهدف جمعها وإصدارها في نشرات دورية توزع في جميع أنحاء العالم، وبالتالي تصل إلى المؤسسات التربوية في العالمين العربيوالإسلامي ليطلع عليها الناشئة فتزيد من اعتزازهم بهويتهموتحفزهم على العمل الجاد من أجل التميز في مجال العلوم والتقنية .

وبعد ، فهذه بعض الأفكار حول موضوع ندوتنا لهذا اليوم ،تمهيداً لمساهمة كل من الزميلين الأستاذ الدكتور عبدالمجيد نصير، والأستاذالدكتور همام غصيب.

كلمة

الأستاذ الدكتور عبد المجيد نصير

عضو المجمع

مع تحول العالم إلى قرية واحدة، بفضل تطور وسائل الاتصال، تواجه كل أمة إشكالية التميز والذوبان. فلم تعد الحدود الجغرافية، ووسائل الأمن، وجوازات السفر، وتأشيرات الدخول مانعاً لدخول أخطر ما يؤثر في الإنسان، ألا وهو الأفكار والمعلومات وأساليب المدنية، وتقنيات الحضارة. وصارت الغلبة في هذه الميادين للأمم القوية في هذه الأدوات المتقدمة في تطورها، وتواجه الأمم الضعيفة أو المتخلفة مشكلة حقيقية، في أنها ستفقد هويتها، وتذوب شخصيتها، وتضيع في مجاهل التاريخ.

وأمتنا العربية الإسلامية وهي في هبوط أحوالها، وضعف وسائلها، وتمزقها إلى دويلات وأنظمة، كُلٌّ فَرِحٍ بمتعلقاته الصغيرة، تواجه هذا التحدي، وهي غير مستعدة له. ومع ما تحمل لنا الأخبار من أن أعداءنا في الغرب وعلى رأسهم الولايات المتحدة الأمريكية قد انتهجوا منعطفاً جديداً في التعامل معنا، بأن لا يتعاملوا معنا على أننا أمة واحدة، ذات كيان راسخ في الوجدان، ممتد في المكان والزمان، بل على أساس أننا شعوب متناحرة ودول متعادية، فإن قضية التحدي لهوية الأمة العربية صارت لها الأولوية في الأحاديث. وحري بأهل الحكمة والثقافة والرأي أن يدقوا الظنابيب فزعاً لهذه الداهية الدهياء، فهم كطبيب الإنعاش الذي يصادفه مريض توقف قلبه. فليس له إلا مباشرة العمل بكل ما يستطيع، لأن الخيار الآخر هو الموت.

وقد أحسن مجمعنا هذا، مجمع اللغة العربية في بلد الرباط والحشد، إذ جعل من هوية الأمة العربية الإسلامية محور موسمه الثقافي العاشر. ودعا المحاضرين ليتناولوا هذا الوضع الخطير من زوايا متعددة. ويسعدني أن

أشارك زملائي في هذا الجهد في الحديث عن التحدي لهذه الأمة في ميدان العلم والتقنية.

وسأدير حديثي هذا على خمس فقرات:

١. هل بالإمكان تمييز هوية أي أمة من الوجهة العلمية والتقنية؟

أو كما يقال: هل العلم لا وطن له؟ ونعني بالعلم المعنى الضيق من المعارف مقابل كلمة (Science) والجواب هو أن العلم ،أصلاً ، لا وطن له ، لأنه يبحث في حقائق مجردة من الحضارة والمدنية المتعلقة بالأشخاص والمجتمعات. إلا أن واقع الحال يدلنا على وجود خيط رفيع فاصل للتمييز بين الأمم المتقدمة علمياً في هذا العصر. فللعلم نكهة يعتصرها من حضارة ذلك الشعب . واتجاهاته وفلسفته ومبادئه وقيمه. وبخاصة إذا أضفنا إلى العلم ما يسمى "أخلاقيات العلم". فنكهة العلم في اليابان هي خلافها في فرنسا أو الولايات المتحدة الأمريكية أو روسيا. ذلك أن الأمم حتى في هذا الميدان شبه المجرد تختلف في اهتماماتها، واختياراتها ، وتطبيقاتها، وتعاملها مع نتائج العلم.

فلا أتصور مثلاً، لو أن أمة الإسلام كانت سباقة إلى اختراع القنبلة الذرية أن تسارع إلى استعمالها كما فعلت الولايات المتحدة مع اليابان في آخر أيام الحرب العالمية الثانية. ولأن العلم في الإسلام عبادة، وليس
تسلية أو وسيلة تدميرية، أو علماً لأجل العلم، فإن اختيارات هذه الأمة ستختلف عن غيرها. وبخاصة، لأن العلم اليوم له تكلفة مرتفعة من المال والمواد والبشر. فالعلم لخدمة الإنسان والإسلام! لا لتدمير الإنسانية. وهو لتعميق الإيمان بالله، وليس لتحدي الطبيعة.

ولهذا، يمكن أن نقول إن أمتنا العربية الإسلامية مدعوة اليوم أكثر مما مضى قبل أن تذوب وتختفي في عالم التقدم العلمي، أن يكون لها كيانها العلمي المتميز ، وهويتها الواضحة، منبثقاً ذلك من قيمها وأهدافها،

وإيمانها بالله، ورسالتها الإسلامية إلى الكون.

٢. واقع المواجهةالعلميّة:

يمكن أن نؤرخ لبدء المواجهة العلمية مع الغرب منذ حملة نابليونودخوله مصر سنة 1798. وعندما جاء بعده محمد على باشا حاكممصر، وكان طموحاً، وجد أن الحاكم القوي يحتاج إلى شعب متعلم ، منتج، صحيح الأجسام، ذي صناعات مستقلة. وهكذا فتح المدارسوالجامعات، وأنشأ كليات الطب والمستشفيات، وعمل المصانع. ومع أنهذا يعني أن المواجهة أثمرت إيجابياً قبل اليابان بأكثر من سبعين عاماً، إلا أن حالنا اليوم مقارنة مع حال اليابان هو مأساة. فنحن أمة متخلفة علمياً، ضعيفة مادياً، مستعمرة أرضاًوفكراً، متخاذلة عسكرياً، مجزأةإلى حد الانهيار، ضعيفةالعزائم إلى حد الخَوَر.

ويلاحظ، بأسى، أنَّ أخذنا للآداب والإنسانيات وأسباب المدنية عنالغرب هو أضعاف ما نأخذ عنه من العلوم والتقنيات والمصانع. نعم إنفي الأمر مؤامرة، ولكننا نساعد في تنفيذها ، لتظل أمتنا سوقاً استهلاكية
غير منتجة، تعتمد على عدوها في أسباب حياتها.

وجامعاتنا،بدلاً من أن تكون انبثاقاًعضوياً من مجتمعاتها، تتفاعل معحاجاتها، وتعينها في حل مشكلاتها ، وتأخذ بأيديها إلى مستويات التقدم ، فإنها صارت وبالاً عليها. إذ صارت مؤسسات تفرخ التقليد للغرب، والانبهار بعلمه وحضارته. وفشلت في استنبات العلم والتقنية. وليسأدل على ذلك من أن نسبة إسهام العلماء العرب والمسلمين في الاختراعاتالعلمية، والتقدم التقني تكاد تكون صفراً. بل إن عالمنا العربيبجامعاته المئة، ومعاهده العلمية الكثيرة ، وملايينه المئتين، لا ينتج منالبحوث كمّاً إلا جزءاًمما تنتجه الجامعات السبع ، والمعاهد في الكيانالصهيوني.

ويمكن تلخيص هذه المشكلة فيما يلي :-

أ- المؤسسات العلمية خارجة عن المجتمع، ليست جزءاًعضوياً منهفي إنشائها وأهدافها.
ب- الاستغراب الأكاديمي منهجاًوخططاً وبرامج وأهدافاً، بل في هيئات التدريس والإشراف الإداريوالأكاديمي.
ج- الانغلاق الأكاديمي للجامعات والمؤسسات العلمية، وتحولها إلىمؤسسات بيروقراطية هيكلية تهتم بديمومتها الورقية. وهذهالمؤسسات صارت منغلقة بدل أن تكون منفتحة على المجتمعوهمومه وقضاياه وتحدياته.
د- أنانية الأكاديميين والباحثين، وغلبة الاهتمام بالسيادة والسلطةوجمع المال عليهم بدل تكريس أنفسهم للعلم والاختراع والإبداع.

٣. مواصلة الاعتماد على الغرب المتقدم .

في التجربة اليابانية نجد أنهم أرسلوا البعثات لمدة لا تزيد عن خمس عشرة سنة (1870 -1885)، وعاد هؤلاء المبعوثون ، لينشئوا الجامعاتوالبحوث، ويقودوا أمتهم إلى التقدم العلمي. ولم يمض وقت طويل حتىصار تعاملهم مع الغرب تعامل الند للند ، وليس تعامل الرضيع معالمرضع أما نحن، فبعد مئتي سنة من البعثات، لا نزال حيث نحن.

إن هذه ليست دعوة إلى الانغلاق ، ولكنها دعوة إلى التميز والإبداع .فالمبعوث لا ينقل العلم فقط، بل ينقل الحضارة والمدنية، مما جعلمبعوثينا غرباء في بلادهم ومؤسساتهم. والتحدي هو أن لا يذوب هؤلاءالمبعوثون في البلاد الأخرى، سواء أكان هذا الذوبان كاملاً في اختيارالبقاء في ذلك البلد، أم ذوباناًفكرياًحضارياً، مع وجود أبدانهم فيبلدانهم الأصلية.

وعلاج ذلك، بتقوية برامج الدراسات العليا، لتكون على المستوىالعالمي ، حيث لا نحتاج إلا إلى إرسال عدد قليل جداً ولفترات قصيرة،وأن نحرص على أن يكون هؤلاء المبعوثون

من الممتلئيناعتزازاً بأمتهم،

المدركين لرسالتها الإنسانية، المستعصيين على الذوبان. ولقد آن الأوانلكي لا يظل هذا نزفاً دائماً باتجاه واحد.

٤. **التحدي أمام الوجود الصهيوني، وما يسمى عملية السلام ومابعدها:**

سيظل الوجود الصهيوني على أرضنا في فلسطين وغيرها تحدياًقوياً دائماً لأمتنا في كل ميدان. والتحدي العلمي التقني واضح ، في أن هذاالكيان هو جزء من المنظومة الغربية المتقدمة بمؤسساته العلمية، وصناعاتهوأبحاثه واختراعاته. فعنده مفاعلان نوويان قد أنتجا ما يقدر بأنه مئتاقنبلة نووية. وها هو يتعاون مع الولايات المتحدة في تطوير تقنياتواختراعات كثيرة، ومنها الصواريخ المضادة للصواريخ. وتقدمهالإلكتروني جعل الشركات الأمريكية تشتري من إنتاجه.

أما بعد عملية السلام، إذا أسفرت المفاوضاتعن اتفاقيات، فسيكونالتحدي هو الأصعب! لأن ما يخبئه هذا العدو لنا هو أن يكون يابانالمنطقة تقدماًعلمياً، وتكون عنده الشركات المنتجة. ونحن العرب سوقاستهلاكية، وعمال في المصانع، وأرضنا تقدم ثرواتها من خامات لهمبأبخس الأثمان.

إن قضية ما بعد السلام هي قضية حياة أو موت لأجيال هذه الأمةومستقبلها. و آن الأوان للمفكرين والإعلاميين أن يشرعوا بحملة إعلاميةضخمة ليوقظوا هذه الشعوب من أحلام الأوهام وسبات الفناء.

٥. نحو مستقبل مشرف :

أقدم فيما يلي بعض الاقتراحات لتعين أمتنا في مواجهة التحديالتقني، لتخرج منه منتصرة بإذن اهلم:

أ- وجوب إعادة النظر في أهداف التعليم والبحث،وربطها عضوياً،بالمجتمع والإنتاج والتقدم.

ب- تقوية برامج الدراسات العليا والبحث العلمي لتكون على المستوىالعالمي، من أجل الاكتفاء الذاتي، وتشجع الإبداع .

ج- تقوية الروابط ال داخلية بين الدول الإسلامية والمؤسسات العلميةفيها، وأن تصير المؤسسات المشتركة فاعلة حقاً في الميدان، وليكونهذا امتحاناً لوجودها. ولا بد من تبادل العلماء والباحثين والبرامجوالخطط والنتائج.

د- التركيز على هموم أوطاننا وشعوبنا وحلها، دون الاهتمام بالتقليدالأعمى، مع توجيه القوى البشرية والمصادر المادية نحو ذلك.

هـ- تشجيع إقامة المصانع برأسمال مشترك بين الدول الإسلامية ، وتشجيع قيام شركات إسلامية متعددة الجنسيات.

و- تشجيع الأوقاف العلمية غير المشروطة لدعم البحث والعلموالإبداع دون حدود.

ز- وضع برامج تربوية شاملة للبيت والمدرسة والشارع لإعادة الاعتزازبهذ ه الأمة، وتوجيهها نحو الصناعة والعلم والتقدم التقني.

ح- تأكيد هوية الأمة العربية الإسلامية في لغة العلم بينها وه ي اللغة العربية ، ومع الاهتمام بتراثها المجيد، وتنوعها الفريد.

ط- تكريم الإبداع والمبدعين من علمائها على مستوى الأمة كاملة .

ي- الاه تمام بالمبدعين، بالكشف عنهم في سن مبكرة، ورعايتهم رعايةصالحة شاملة، لأنهم الدم المتجدد والشريان الدائم.

ك- نشر الوعي بقضايا الأمة من وجهة نظر إيجابية،وقابلية هذه المشكلات للحل، بدلاً من سدل ظلام اليأس، ونشر أنفاس العجزفي الصدور والعقول.

وأسأل الله التوفيق والسداد، والإخلاص في العمل.

كلمة

الأستاذ الدكتور همام غصيب

عضو المجمع

أيّها الحفلُ الكريم:

لا بُدَّ أوّلاً من كلمة شكرٍ وتقدير أزْجيها للأستاذ الدّكتور رئيسِ المجْمَع وزملائي الأفاضل، أعضاء لجْنَةِ الندواتِ فيه، على دعوتِهم الكريمةِ لي للمشاركةِ في هذه النّدوةِ الموفّقةِ بإذن الله.

ولا بُدَّ ثانياً من الاعتراف بأنّ موضوعَنا اليوم أطولُ وأعرضُ وأعمقُ من أنْ تَفِيَهُ حَقَّهُ نَدْوَةُ ساعةٍ أو ساعتيْن؛ فهو بحاجةٍ إلى أكثرَ من مؤتمرٍ متخصّص ومجلّدٍ متعمِّق كي يُفْصِحَ عن أبعادِه ومكنوناته.

دَعُوني،إذاً، أتصدّى له بأنْ أحدِّدَ بعضَ محاورِه المهمّة وأتدبّرَ عدداً من الأفكارِ والنّظرَات.. أملاً أنْ تنتظمَ هذه كافّةً - في نهاية المطاف - بعِقْدٍ واحد.

المحور الأوّل: الهُويّةُ العربية الإسلاميّةُ والعالَمُ العربيُّ الإسلاميّ:

نستطيعُ أنْ نتحدثَ عن هُويّةٍ وثقافةٍ عربيّةٍ إسلاميّة (دون شَرْطةٍ أو مائلة أو واو عطف) ، وعن عالَمٍ عربيّ إسلاميّ لأنّ هذا العالَمَ كوّن تاريخياً ، كُلاً متجانساً لمْ تتمكنْ كل الاضطراباتِ الدّاخليّةِ والغَزَوَاتِ والاجتياحاتِ من فَصْمِهِ على الصعيد الثقافيّ والرّوحيّ. وامتدّت الحضارةُ العربيّةُ الإسلاميّةُ امتداداً شاسعاً في الزمانِ والمكان. وكان النّاسُ ينتقلون بحريّةٍ تامّةٍ في هذا العالَم، مثلهم مثل الأفكار؛ كما كانت العربيّةُ عموماً لغةَ النُّخَبِ المثقفة.

أمّا اليوم فالوَضْعُ جدّ مختلِف: إذْ إنّ معظمَ المسلمين موزّعون في دولٍ مشتتةٍ تكتنفُها المشكلاتُ والصّعوبات من كلّ حِدْب وَصَوْب. ولمْ يَعُد جميعُ

الدول الإسلاميّةِ المعاصرَةِبلْداناً ناميةً على الصّعيدِ الصّناعيّ التقانيّ، حتى ولو كان بينها دولٌ من أغنى دولِ العالمَ، وأخرى من بين أكثرِ الدّولِ فقراً. وتبدو صورة العالَم الإسلاميّ متصدّعةً مفككةً إلى أبعدِ الحدود. فما الذي يَجْمَعُ - للوهلةِ الأولى - بين الجَبَليّ اليمنيّ أو الأفغانيّ، الذي يعدُّ كلّ "حديث" ومعاصرٍ غَيْرَ إسلاميّ، والمدنيّ التركيّ أو المغربيّ الذي أضحى غربيّاً أكثرَ من الغربيّين؟ أضِفْ إلى ذلك أنه تولد داخل كلِّ بلدٍ إسلاميّ توتّرٌ متفاقِمٌ بين النُخَبِ "المتغرّبةِ"، وحَلَقاتِ المجتمع التقليديّة.

المشكلة أنّه حدثَ خلْطٌ بين مَفهُومَيّ "التحديث" و"التغريب". فالمفهوم الأوّلُ يتفق تماماً مع روحِ الإسلام الشّاملة؛ بينما يمثلُ الثاني عدواناً بلغزوٍ فكريّاً يجبُ مقاومته. من هنا، فلا تناقُضَ بين الإسلام وظاهرة العلم والتقانة، التي تتحكّم تحكّماً واسعاً في ترتيب العَلاقاتِ الاجتماعيّة. والسّؤال الذي ينبغي أنْ يُطرَح هو: ماذا تستطيعُ هُويةٌ خصوصيةٌ كالهُويّة العربيّةِ الإسلامية تقديمَه للتقدّم العلميّ والتقانيّ؟... قبل أنْ أجتهدَ وأجيب، دعُوني أتدبّر المحورَ الثاني.

المحور الثاني: العِلمُ والتقانةُ الحديثة:

ما العلم؟ بإيجاز، هو منظومةٌ مُنسّقةٌ ومُوَحَّدةٌ لسَبْر غَوْرِ الطبيعة، اعتماداً على طرائقَ تجريبيّةٍ وعَلاقاتٍ موضوعيّةٍ تُكتشَف تدريجيّاً وتُؤكَّدُ بمنهجياتِ بَحْثٍ مُحَدَّدة. أمّا التقانة، فهي - بإيجازٍ أيضاً - التطبيقُ العمليّ في وسطٍ اجتماعيّ ثقافيّ مُعَيّن لاكتشافاتِ العِلْم "البَحْت". ومعَ أنّ المفهومَيْن متباينان نظريّاً، إلا أنهّما مترابطان في واقعِ الحال ترابطاً جدليّاً قويّاً: فالعلمُ يولّد تِقاناتٍ جديدةً تُسْهِمُ بدورها في تطوّر العلم... تطوّرُ العِلْم والتقانة معاً خاضعٌ دون أدنى ريْب، إذاً، لتأثير الوَسَطِ الاجتماعيّ الثقافيّ الذي أنجَبَه. ومعنى ذلك أنّ ظاهرةَ (أو عمليّة) العلمِ

والتّقانة ليست "محايدة"؛ فهي تعكسُ بعض الخيارات التي تكوّنُ بمجملِها"أيديولوجية" متكاملة. وهنا بيتُ القصيد. لهذا، لا بُدّ من وقفةٍ متأنّيةٍ نستشفّ فيها مدلولَ هذه الملاحظةِ العميقة.

نلاحظ أولاً أنّ الدّعوةَ إلى العلم والتّقانة، خصوصاً في المنابرِ التي تناقشُ التّنميةَ الاقتصاديّة والنّظام الدّوليّ الجديدَ المزمع إنشاؤه، قد غَدَت اليومَ أشبه بالصّيغ السّحريّةِ والبلسم لكلّ داء. فأدخلتْ هيئةُ الأمم المتحدة في كثيرٍ من برامجها، أهدافاً مثلَ التّرويج لنقلِ التّقانة أو تحويلها إلى البلدان النّاميةِ بفضل التّعاونِ الدولي، وبالتالي تخفيض الفارقِ في مجال السّيطرةِ على المعارفِ التّقانية. مثلُ هذه الأهداف، الضّروريّة والمشروعة كما تبدو للوهلةِ الأولى، قد تزيد - على المدى المتوسّط- التّبعيَّة الاقتصادية للبلدان الأكثر ضَعْفاً، وقد تسرّعُ عمليّةَ التّغريبِ على شكل اجتياحٍ بنيويّ وثقافيّ...مولّدة بذلك من المشكلات الاجتماعيّة ما يَطغى على أيّ حُلولٍ تقدّمُها لمعضلة التّنمية والحقّ أن جُلّ دول العالم الثالث لا تمتلك "أرضية صناعية" تستطيعُ التّقانة أنْ تزدهر عليها. أضفْ إلى ذلك أنّ الدّولَ الصناعيّة تُبْقي - بكلّ خُبْث ودهاء- على تَبَعيّةِ العالم الثّالثِ بأنْ تبيعه تقانة غيْرَ ملائمةٍ أو لا قيمة لها... ناهيك عن السعر المرتفع، وعدم معرفةِ البلدان المشترية المعيارَ الذي حُدِّدَ به هذا السِّعْرُ.

ونلاحظُ ثانياً:إنّ العلمَ لا يَزيدُ من كميّةِ المعارف حَسْبُ، وإنّما يُغيّرُ أيضاً طريقة التّفكير نفْسَها في الإنسان والعالم. وترتبطُ هذه الظاهرة بتطوّر القوى المنتجةِ التي تزيدُ بدوْرِها من العقلانيّة ، وهلمّ جَرّ ا، في سلسلةٍ من التّفاعلات ؛ فيتسارع التقدّم، البطيءُ أوّلَ الأمر، ثمّ تُمسي سرعتُهُ صارخةً مدوخةً. أمّا الروحانيّة: أي الأخلاقُ والتفكيرُ في المشكلاتِ الإنسانيّة والاجتماعيّة، فتتلكأ بالضّرورة وتعجزُ عن اللّحاق. لقد زَعَمَ

الغربُ القدرة على حلّ جميع المشكلات تقانيّاَ؛ لكن نظرته المادّيّة هذه، المتهاونة بالقيم الرّوحيّةِ والثّقافيةِ،بدأتْ تفقدُ بريقَها وأخذتْ قطاعاتٌ معيّنةتستنكرهُا.

نلاحظُثالثاً:إذاً، إنّ العلمَ اليوم "غربيّ". إنّه يبهرُ ويولّد في نفوس الناسِالرَجا ءَ والثّقةَ والأمن؛ لكنّه أيضاً مَرَضِي... بمعنى أنّ انفصالهُ عن القيمِوالأخلاق سَمَحَ له بأن يُخصّص أكثر من أربعين (40) بالمئة من إمكاناته المجهودِ الحربيّ ؛ إذ إنّ المموِّل والمشجّعَ والمستهلِكَ الرَئيسيّ في البلادالصّناعيّة لجميع الاكتشافات التي طبَعَتْ عَصْرَنا بطابعها كما سَتطبَعُ العصور القادمة، كان دائماً القوّاتِ المسلّحة، والمؤسسة العسكريّة...خذْمثلاً الاكتشافات والاختراعات النّوويّة، ارتياد الفضاء، التّقانة الحيويّة والهندسةَالوراثيّة، المعلوماتيّة وشبكات الاتّصالات المتقدمة، التدخّلاتِ المناخيّةِ... أضفْ إلى ذلك أنه من الجائز أنْ يُفضيَتهاونهُ بتوازنِ الطبيعةِ إلى كارثةٍ بيئية رهيبة، نظراً لتبذيرِ المواردِ الطبيعيّةِ وتراكمِ النّفايات، بمافيها الفضلاتُ النّوويّة.

على أيّ حال، لقد أسهمَ العلمُ الحديثُ إسهاماًكبيراً في دَفْع عجلةالتقدُّم الإنسانيّ، في المضمار المادّي على الأقلّ؛ فليس القصْدُ هنا محاكمَته،وإنّما التّساؤل حول حيادِه و"كَوْنِيّته". صحيحٌ أن العِلمَ"المحْضموضوعيّ؛ إذ إنّ التحيّزَ والتعسّفَ مناقضان له من حيث المبدأ، لكنْ هليعني هذا أنْه حُرٌ من كلِ قيمةٍذاتيةٍ؟... نشكُّ في ذلك لأنّ العلمَنشاطٌ معرفيّ واجتماعيّأيضاً، فهو يحملُ بَصَمَاتِ النّاس أو المؤسّساتِ التي أنتجَته.

وقُصارى القَوْل: إنّ أيّ منظومةٍ علميةٍ ليست عامّة ولا محايدة. فلا بدّ منإعادة النَظر في الأسس الأخلاقيّة والفلسفيّةِ التي أقيمَ عليها العلم

وتكييف عَلاقاتِه مع المجتمع والطّبيعة. وهنا تستطيعُ حضارات أخرى تقديمَ الحلول بعوْدتِها إلى روحها وارْثها الثقافيّ. وهذا تحَدّ بارزٌ لنا... ويقودُنيبدوره إلى المحور الثالث.

المحورالثالث: هويَتنا فيمواجهة التحدّيالعلميوالتقاني الحديث

واضحٌ أنّ التقدّمَ العلميّ سيكونُ مقبولاًومهضوماً من الأمّة فقط إذاانسجمَ مع الأصالة العربيّة الإسلاميّة. لكنْ لا يمكنُ رفضُ كلّ صورةٍ للتقدّمجملةً وتفصيلاً، لأنّ"الحداثة" ليستْ "غربيّة"فقط ، بل هي عالميّة، ولا يمكنُ أنْ نظلَّ بَمَعْزلٍ عن التقدّم العالميّ الذي ي غذّ الخُطى دون كللٍ أو مَللٍ. المحذورُ هنا أنّ استيرادَ التقانات الأجنبيّة دون تمييز قد تكونُ له العواقبُ الوخيمةُ نفسُها لرفضها، وقد يدفعُأحياناً إلى تناقُضاتٍ دامية.

لقد جازفَ العالمُ الإسلاميّ اليوم بالانخراطِفي عجلةِ التّحديثِ السَريع. وتجري هذه التجاربُ التحديثيّةُبشكل عشوائيّ. وهي جميعاً متأثّرة بدَرَجَاتٍ متفاوتة، بالنموذج الغربيّ؛ فلا تنهضُ فيها القيَمُ التقليديّة إلا بدور هامشي. هنا يكمن التحدّي الثقافيّ. فليس المطلوبطُبعاً رَفضَ الحداثة، وإنّما العثور على حُلولٍ أصيلة ومُبْدَعةٍ، خصوصاً أنّ البلدانَ الصناعيّة لا تشجّعُ عموماًالتقدّمَ العلميّ في العالمِ الثالث إلا إذا كانتالخياراتُ متطابقة مع تصوّرها النظريّ الخاص ومصالحها الاقتصاديّة.المطلوب، بعبارة أكثرَتحديداً، انتهاجُ سياسة جديدةٍفي المجال الثقافيّ التربويّ تسهمُ في تغييرِ علاقة القوى الرّاهنة، التي تحافظ على تبعيّةِ العالمِ الإسلاميّ للتقانة الخارجيّة بل تزيدُ منها، فتحولُ بذلك دون اكتشافِبدائلَ مستقلّة.

لا يستطيع العالمُ الإسلاميّ، وهويؤكّد نفسَه، أنْ ينغلق، إذاً: سيكون

ذلك مخالفاً لتجربتِهِ التاريخيّةِ المعروفة، فضلاً عن أنّ العُزْلَة تعني الموْتَ المحَققَ في المجال العلميّ. فالانفتاح (واعذروني على استعمال هذه الكلمة) يمثّلُ عَزْماً سياسياًواختياراًاقتصادياً . ويمكن أن ينكب الجهدُ في بدايةالأمر على إنشاء "الأمّةِ العلميّةِ الإسلاميّة "، على أساس أنّ توحيدَ أهلِالعلم أكثرُ سهولة من الوَحَدةِ السياسيّة.كما يجب أنْ يكونّ الجهْدُقوميّاً أو إقليميّاً: فالعلم نشاط مشاركة.. الأمر الذي يتطلّب العنايةَ البالغةبالتّعليم العامّ والمؤسّسة التربويّة.

ولا مَفرّ من الاعتراف هنا بأنّ سياسةَ التنمية العلميّة والتقانيّةِ مرتبطة ارتباطاًوثيقاً بالأهدافالأكثرشمولاً للتنميةِالاقتصادية. فالحلول النابعة منصُلبِ الأمة تُجْهَضُغالباًبسبب الإطار ِالاقتصاديّ العالميّ المرضيّ الراهن؛ إذ إنّالعلميّة الاقتصاد ِالمتزايدة تميلُ إلى الحدّ أكثر فأكثر مناستقلال الحكومات الوطنيّة. وهكذا غَدَتْ دائرةُ المبادرةِ والاستقلالِ ضئيلةبالنسبةِ إلى الدولِ الأقلتقدماً.

لقد أقيمتْ جميعُ الحضارات الكبرى على المكوّناتِ الثلاثة الجوهريّةِ للطبيعة الإنسانيّة: المعرفة والعمل والوجْدان. فالعلمُ والتقانة يندرجان فيباب "المعرفة "، و"العملُ " يتطابق مع الوعي المتزايد ِبالمسؤوليّةِ الاجتماعيّةلكلّ فرد،و"الوجدانُ" ينطوي على القناعة ِالروحيّة والاستمراريّة الثقافيّة.التحدي هنا أنْ نربط بإحكام بين هذه المكوّنات الثلاثة، متجاوزين حالةالجمود والسُّبات التي استطاع ابن خلدون أن يُعَبِّرَ عنها ببلاغةٍ وإيجاز.

والتحدّيأيضاً تحديدُ التوازُن بين هُويّة الأمّة وضرورة ِالتغير ِوالتواصلِ الثقافيّ.. بين الأصالةِ والتجديد.

والسّلام عليكم جميعاً، ورحمة الله ِوبركاته